الفكاهة في شعر بيرم التونسي

على الرغم من الحس اللغوي والأدبي المرهف الذي تميز به عقل وفلم بيرم التونسي ، فإن صفة الزجال هي التي عرف بها حياً وميتاً فقد كان للمواويل والأغاني والأزجال التي عاشت في وجدان الشعب العربي بعامة والشعب المصري بخاصة ، أثر كبير في تلقيب بيرم بـ " شاعر الشعب " وإضفاء صفة الزجال عليه بصورة تلازمية .

وقد ساعد على انتشار هذه الفكرة ، ضآلة إنتاجه الفصيح من جهة وإعراض النقاد ومؤرخي الأدب عن دراسة ذلك الإنتاج الفصيح الذي يتمثل في تلك القصائد القليلة التي نعرفها ، وتلك المقطوعات التي تتخلل مقاماته التي نشرت في جزأين حتى الآن عن الهيئة المصرية العامة للكتاب .

وفي تقديري أن الحياة الشخصية المضطربة التي عاشها بيرم التونسي وما شهدته من تقلبات وما عاناه من عذاب النفي والتشريد ثم انهماكه في عدة أعمال صحفية لضمان لقمة العيش ، ثم اندماجه فيما بعد في العمل الإذاعي والسينمائي والمسرحي . كل ذلك كان وراء قلة إنتاجه من الشعر الفصيح وغلبة اللغة الشعبية على فنه الشعري بدليل هذا الكم الكبير من المواويل والأزجال التي خلفها والتي كان كثير منها أجزاء من أعمال أوبرالية أو مسرحية أو إذاعية قدمها بيرم في مراحل مختلفة من حياته .

ويبدو أن سوء الحظ الذي عاشر بيرم معظم سني حياته ، قد حالف أعماله بعد وفاته ، فلم يحظ إنتاجه بالتقدير اللائق بها من جانب النقاد والدارسين . وظل معظم ما كتب عنه مجموعة من الكتيبات أو المقالات والبحوث التي قدمت في مؤتمرات أو في مناسبات مختلفة أحييت فيها ذكراه.

وإذا بحثنا في هذا الكم الضئيل مما كتب عنه عمن تناول أشعاره الفصيحة سنجد عملين اثنينهما :

١. كتيب في نحو ثلاثين صفحة متوسطة من تأليف الأستاذ عبد الفتاح غبن نشر ملحقاً للعدد ٢٠٧٨ من مجلة الإذاعة والتليفزيون المصرية الصادر في ١١ يناير ١٩٧٥م.

٢. كتاب للشاعر عبد العليم القباني عنوانه " محمود بيرم التونسي " ١٨٩٣ ١٩٦١ " يقع في نحو ستين ومائة صفحة صدر عن دار الكتاب العربي للطباعة والنشر بالقاهرة .

ومما يؤكد ما حدسناه من ملازمة سوء الحظ لإنتاج بيرم التونسي الفصيح أن الهيئة المصرية العامة لقصور الثقافة أصدرت في مارس ١٩٩٦ كتاباً تذكارياً عن بيرم التونسي يقع في ثلاث وتسعين ومائتي صفحة ويضم اثنى عشر بحثاً ليس من بينها بحث واحد يتناول شعره الفصيح بل يدور معظمها حول أزجاله ومقاماته ونقده للمجتمع .

لم يخرج شعر بيرم الفصيح في قوالبه الشكلية عن الأطر التقليدية للبحور الخليلية على الرغم من قدرته التشكيلية الهائلة التي تبرز أكثر وضوحاً في أزجاله

فجميع شعره الفصيح أتى في البحور التقليدية وإن كانت هناك سمات خاصة بشعره فمن الممكن إجمالها في أنه أفاد كثيراً مما في تراثنا من محاولات تجديدية

فقد كان بيرم التونسي مستوعباً جيداً للتراث العربي ، وينقل صديقه عبد الفتاح غبن على لسانه شهادته عن استيعابه للتراث حيث يقول بيرم.

" لقد حفظت القرآن الكريم ودرست ستة كتب في تجويده وتلاوته بقراءته الثابتة عند أئمة الشريعة والدين . . واستوعبت دراسة الأدب العربي القديم من أمهات مصادره وشربته من أصفى ينابيعه ودرست البلاغة وعلوم اللغة وفقهها وأحطت بشواردها وأوابدها إحاطة السوار بالمعصم ".

فإذا حاولنا أن نرى أثر ذلك في شعره الفصيح – من حيث الشكل – فإننا نجد تلك القصة التي وردت في كتاب " إعلام الناس بما وقع للبرامكة مع بني العباس" والتي تقول إن الخليفة هارون الرشيد كان يسير يوماً بصحبة وزيره جعفر البرمكي فوجدا فتاة تتغنى على بئر ماء بقولها :

قـــولي لطيفـــك ينثنـــي ... عـــن مضـــجعي وقـــت المنـــام
كـــي أســـتريح وتنطفـــي ... نـــار تـــأجج في العظـــام
دنـــف تقلبـــه الأكـــف ... عـــلى بســـاط مـــن ســـقام
أمـــا أنـــا فكـــما علمـــت ... فهـــل لوصـــلك مـــن دوام ؟

فسألها الخليفة : أهذا من مقولك أم من منقولك ؟ فلما قالت إنه من شعرها طلب إليها أن تمسك المعنى وتغير القافية فقالت :

قـــــولي لطيفـــــك ينثنـــــي ... عـــن مضـــجعي وقـــت الوســـن
كـــــي أســـــتريح وتنطفـــــي ... نـــــار تـــــأجج في البـــــدن
دنـــــف تقلبـــــه الأكـــــف ... عـــلى بســـاط مـــن شـــجن
أمـــــا أنـــــا فكـــــما علمـــــت ... فهـــل لوصـــلك مـــن ثمـــن ؟

فكرر الخليفة سؤاله وطلبه فقالت أبياتها نفسها جاعلة كلمات دالية ثم عينية القافية متكان الكلمات الأربع الأخيرة من الأبيات .

مثل هذا التكنيك استخدمه بيرم في إحدى مقاماته على لسان أحد المجاورين (= طلاب الأزهر قديماً) واسمه المتيم بن ولهان الذي يصف وقفته في محطة الترام ناظراً إلى ساق إحدى الفتيات وقد مضى خلفها يقول متغزلاً في ساقها :

أيهـــا الســـاق الـــذي قـــد دملجـــا ... وتحاشـــى حجلـــه أن يخرجـــا
يتهـــــادى يمنـــــة أو يسرـــــة ... خلفـــــه أو خفـــــة لا حرجـــــا
كلـــــما ســـــارت بـــــه ربتـــــه ... خلتهـــا عمـــداً تـــدوس المهجـــا
كيـــف يلقـــاك محـــب والـــه ... إن تمـــددت عليـــه ابتهجـــا ؟

قال المتيم بن ولهان : فمرت ولم تفهم فقلت إلى جهنم . ورجع إلى مكانه من محطة الترام فلما جاءت أخرى ذات نهد عظيم تبعها متغزلاً في نهدها وهو يقول

أيهـــا النهـــد الـــذي قـــد قبقبـــا ... وغـــدا كالكـــأس حـــين انقلبـــا
يتهـــــادى يمنـــــة أو يسرـــــة ... فاتنـــــاً إفرنجهـــــا والعربـــــا

كلما سارت به ربته أظهر الطيش وأبدى اللعبا
كيف يلقاك محب واله قد تلظى قلبه والتهبا

وقد كرر بيرم هذا اللون من التشكيل الفني في مقاماته أكثر من مرة وهو ملمح تراثي ملحوظفي غالب نتاجه الفصيح ، وهناك ملمح آخر وهو اللزوميات التي تفرد أبو العلاء المعري بالتوسع فيها في تراثنا الأدبي القديم حتى نسج على منوالها ديوانه الشهير المتفرد " لزوم مالا يلزم " وقد مارسها بيرم التونسي في شعره الفصيح ومن ذلك قوله ملتزماً قافية النون والكاف من قصيدته من شعره الجاد الذي يصف به سوء حاله ويتخيل نفسه يتحدث إلى محبوبة هي سليمى ويطلب منها أن توصل شكواه إلى طلعت باشا حرب مؤسس الاقتصاد المصري الحديث والذي اقترن اسمه ببنك مصر الذي أسسه في العشرينيات يقول بيرم :

سليمى لم يكن بعدي لصد أو غنى عنك
ولكن لم أكن ألقى بجيبي نصف افرنك
ولا قرشاً به أشري لعيني قطرة الزنك
عسى أن تصل الشكوى لطلعت صاحب البنك
هو الحرب الذي أضحى بمصر هازم الضنك

ومن لزوميات بيرم الفكهة قوله في قصيدة (بائع الكفتة والكباب) يصف جلسة معهودة في الأسواق الشعبية حين يتحلق العامة حول باعة الأطعمة الذين لا

تعنيهم صحة الناس في شيئ فيبيعونهم الكفتة والكباب وما شاكلهما في ظروف صحية واجتماعية وأخلاقية يرثى لها :

وقدامهم حطوا صحون مخلل ... بحافات هاتيك الصحون هباب

ستصبح في مصر وزارة صحة ... بها يسبح الصياع ، وهي عباب

وتركب فيه المركبات سريعة ... شيوخ تردى تحتها وشباب

أرى للفتى الجربان في السوق نصبة ... يباع عليها كفتة وكباب

محبشة رقطاء تحسب نقطها ... من الفلفل الهندي وهو ذباب

وحول الفتى رهط من الناس واقف ... عليهم دخان عابق وضباب

وقد جحظت أبصارهم من تلمظ ... وعسر ازدراد بين ذاك سباب

وكتب بيرم محاولاً الإضحاك فإذا به ينظم هذه الأبيات الرائعة في تأمل الحياة ، تختلط فيه السماحة بالألم والسخرية :

الأرض عندي كلها أرض فلا ... باريسها تمتاز عن بيروتها

والناس في نظري سواء كلها ... وشريفها ما امتاز عن عكروتها

ويغيظني أني رأيت جماعة ... حملت لتعرفها الدنى بكروتها

ولقد ضحكت من الجبابرة التي ... زلت بها الأقدام في جبروتها

ومما يتصل بهذا أيضاً ولع بيرم التونسي بالمعارضات وهي من فنون التراث الأدبي القديم ، وقد جدد بيرم في هذه الناحية فلم يكن يعارض بالشكل الذي يعارض به معاصروه كشوقي وحافظ .

وإنما كانت موهبته الفنية تجعله يقلد أشعار معاصريه محاولاً تقمص شخصياتهم الفنية ، فهي معارضة من نوع جديد لا نعم أحداً غير بيرم برع فيه

وقد تخيل بيرم أن مجموعة من شعراء عصره جلسوا يكتبون قصائد لهم عم زلزال قوي ضرب اليابان في الربع الأول من هذا القرن وكتب بيرم ما تخيل أن كل شاعر من هؤلاء كان سيكتبه ملتزماً الملامح الفنية الخاصة لكل منهم فقال على لسان خليل مطران:

تقطعت الأوصال من عزمة الفتى ... وما الخطب إلا أن تقطع أوصال
عجبت وأرجاء السماء عريضة ... عن الأرض أن يبقى على الأرض أثقال
تفجر صلصال الأديم وما درى ... على علمه أن البرية صلصال
أفي كل يوم للسماء صواعق ... وفي كل يوم للبسيطة زلزال ؟

ويتخيل بيرم التونسي ما يكتبه مصطفى صادق الرافعي عن الزلزال فيقول على لسانه - ساخراً من جنوحه إلى الإثارة العاطفية والتفلسف والإغراق في الفكر على حساب الحس والخيال الفني الذي يمنح الشعر بهاءه :

ما للورى ؟ هلك الورى ضل الورى ... أين الورى؟ ذهب الورى كهباء
والموت ليس الموت بل هو نفسه ... يفنى فناء قبل أي فناء
يا أمة الشرق قد أنزلت ... بين الطبيعة من ذرى العلياء
أجدر بشعبك أن يعيد فخاره ... بين الأنام بهمة قعساء
إن كان من فوق الطبيعة من يد ... ما خلتها غير اليد الصفراء

أما حافظ إبراهيم فإن بيرم التونسي يقول على لسانه مستخدما طريقة نظمه التي تفضل البنية الخطابية الجهيرة التركيب لكي تناسب جهورية صوت حافظ الذي كان يتفنن في إلقاء شعره بنفسه في المحافل والمنتديات :

بلد الشمس أي خطب دهاها ... فطغى سفلها على أعلاها

إيه يا مطلع الشمس لقد أظلمت ... ما بين ليلة وضحاها

حتى إذا وصل الشاعر أحمد رامي التقط بذكاء ما يميز شعر رامي من أن معظمه عن الحب ، وأن كثيراً من القصائد التي كتبها رامي نونية القافية . . بل إن بعض التعبيرات التي استخدمها بيرم في تقليد رامي ما زالت تتردد في قصائده :

في رياض الهوى وتلك الجنان ... خلياني في سكرتي خلياني

واسقياني كؤوس ذكر حبيبي ... واغلظا والحفا على السكران

خفق القلب وهو دار حبيبي ... ولهذا أخشى من الخفقان

إن ما سألت عن خفق قلبي ... لا تسل بعده عن اليابان

ويقول بيرم التونسي بأسلوب الشاعر إبراهيم عبد القادر المازني الذي يظهر فيه اهتمامه برسم الصورة الشعرية ساخراً أيضاً من بعض التعبيرات التي استخدمها المجددون الرومانتيكيون الذين عرف عن المازني ولعه بهم :

تزلزل وجه الأرض والظهر حقبة ... غداة تولتها أكف العصائب

فألقت على صفر الوجوه غياهبا ... أحاطت بلاد الصفر من كل جانب

تذوب خروق الدهر في مصنع الدجى ... فتدمي بخطب قاتم اللون ذائب

فـــلا يتـــولى وصـــفها غـــير شـــاعر ولا يتـــولى سردهـــا غـــير كاتـــب

أما من ناحية المضمون فإن شعر بيرم التونسي – وأزجاله كذلك – كان مثالاً للالتزام بقضايا عصره ومجتمعه وقد أغفلنا في هذا المقال قصيدته الشهيرة عن المجلس البلدي لكثرة ذيوعها . وتبقى كلمة نرجو فيها باحثينا الجادين في الجامعات أن ينهض أحدهم بعبء دراسة شعر بيرم الفصيح فما أجدره بالدراسة المتأنية الجادة .